

كتاب سيبويه في المغرب والأندلس *

الاستاذ: محمد جبى

تمہید تاریخی:

ينصل كتاب سيبويه بالدراسات اللغوية وال نحوية في المغرب والأندلس اتصالاً وثيقاً عبر المصوّر ، ويُرجع احتكاك هذه البلاد باللغة العربية إلى عهد الفاتحين المسلمين في القرن الهجري الأول . وكانت عجمة لسان سكان هذه المناطق مداعاة إلى اقبالهم على تعلم لغة القرآن منذ أن أخذ الإسلام ينتشر بينهم ، والعرب يعيشون بين ظهاريهما . وقد بدأ تعلم اللغة العربية في المغرب الإسلامي بطريق المحاكاة والتعميم الشفوي البسيط ، وحفظ آيات و سور من القرآن الكريم لأداء الشعائر الدينية ، قبل أن يميل إلى استكناه أسرار اللغة والتعرف على قواعدها ، حينما رسمت قدم الإسلام في هذه البلاد ، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من الدولة الإسلامية الكبرى . لاسيما عندما أخذت تنتشر الحركة الفكرية ، الدينية واللغوية ، القائمة في المشرق آنذاك ، وتتردد صداً عنها في أرجاء المغرب والأندلس .

خلفاء دمشق او بغداد تصل الى المحيط الاطلنطي، وجبال البرانس ، او عندما انفصلت المنطقة عن انتظارهم بزعامة الامويين في الاندلس ، والادارة في المغرب ، والغالبية ثم الفاطميين بالشريعة .

وابتداء من القرن الرابع ، دخل الغرب الإسلامي مرحلة النضج والتنوع الفكري ، حيث أخذت مساجد قرطبة بمنة خاصة ، تخرج بعلماء ، وكتباتها ترعرع بمختلف المؤلفات اللغوية وال نحوية والأدبية ، أيام عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر . وتأكّلت شخصية هذه المنطقة في القرون التالية مع المرابطين والموحدين الذين تكروا طوال قرنين وبنفس من اقامة أمبراطورية انتظمت في سلوكها اقطار شمال إفريقيا والأندلس ، فكان العلماء ينتشرون في أرجائها الفسيحة ، يملون ويؤلفون ، وينالون من ضروب الاعتراف والتشجيع اللوانى . وفي هذه الفترة بالذات نالت الدراسات اللغوية وال نحوية والأدبية أوجه نسب ، وراج كتاب سيبويه أعظم رواج .

ثم كانت زوابع ومحن في المشرق الإسلامي خلال القرن المجري السابع كانت تعصف ببناته ، لولا جهود المربين الضخمة فيها يمد ، والمثلثة

كان من الطبيعي ان يحدث مثل هذا في الجناح الشرقي من الامبراطورية الاسلامية ، غير ان قيام مدینتی البصرة والكونفة في العراق . واتصال علمائهما من عرب وفرس على جمع اللغة العربية وفلسفتها بتعميد القواعد واستنباط الاحكام والضوابط ، اسرع الخطى بتلك الاقطرار في ميدان العلوم الحسانية ، وتحولها تصب المسبق في هذا المضمار ، حتى انجبت من الاعلام امثال الخطيل بن احمد ، وبيونس بن حبيب وسيبوه الذين اصيروا ائمة العربية في كل زمان ومكان .

لقد دخل النحو الى المغرب والأندلس مع
تلسيذ هؤلاء الآئمة الذين هاجروا من الشرق
فحطوا رحالهم بالقىوان وناس ومرطبة ، واملوا
على المتعلمين في هذه البلاد ما حوتة صدورهم
وقد اطيسهم من علم غزير . ولئن عرفت الوضاع
السياسية بهذه الجناح الغربي من العالم الإسلامي
تقلبات كبيرة خلال القرون المجرية الأولى ، فإن
الحركة الثانية ، ومن ضمنها العلوم السانية ،
لم تتنش عن طريقها او تقف عند الحدود المصطنعة
انس كانت تت下班 حاجزا هنا وهناك ، تتقدم تارة
وتروجع أخرى . فتابع العلماء نشاطهم الفكري في
هذه البلاد ، سواء في المعهد الذي كانت فيه سلطة

* من حضرة القيت بالمؤتمر العالمي الذي أقامته جامعية بهلوى بشيراز لتكريم ائم الاتحة سيديه بنتبة مروي ائم عشر قرنا على وفاته ، من 27 ابريل إلى 2 ماي ، 1974

المدرسة الثانية ولو أنها امتدت في البداية بصيغة عالمية محبة ، ثاناتها تحولت إلى ما يشبه مسجد الضوار ، خارمة التوانين امتدادا على ساعات شاذة أو منحولة ، وشعبت إلى حد كبير سبل تحصيل النحو ، أو المسند على حد تعبير السيوطي .

ثم تدارس علماء بفداد بعد ذلك آراء المدرستين المتأ sistين ، نوازنوا واستظروا ، وخطوا ورجموا . وتنج عن ذلك ظهور مدرسة بفدادية جديدة ، هي مزيج من مذهب البصريين والковيين .

وقد تلقى الغرب الإسلامي تواعدا السنة العربية بهذا هبها الشرقي الثالثة ، عن طريق النحاة الماجرين ، ومعظمهم جامعوا من بفداد ، ملخوا من كتاب سيبويه أساسا للتعليم ، لأنهم بدورهم أخذوا عن شيخ بصريين أو مشائخين لذعهم . ولانتشار المدرسة البصرية في المغرب والأندلس ، وسيادتها في المعمود الأولى على سادها من المدارس النحوية أسباب يمكن إجمالها فيما يلى :

أولا - أن المذهب البصري أكثر إمساكا ومنتقلا ، وأقل تشوبا وتملا .

ثانيا - وجود كتاب سيبويه بين أيدي الناس ، لا يزاحمه كتاب آخر للرؤاسي أو الكشائين أو غيرهما من الكوفيين . والكل يعلم أن هؤلاء لم يبلغوا ما يمكن أن يضاهي لو يقارب كتاب سيبويه وإنما هن رسائل وكراريس لا تذكر أيام الكتاب .

ثالثا - مناصرة العبيسين لعلماء الكوفة ، وإيثارهم أيامهم ب التعليم ولاة العهد وأبناء كبار رجال البلاط ، جعل الناس في الفرب يندرؤون من هذا المذهب بعد أن خاصموا ثلاثة بفداد وخلعوا طاعتها .

على أن ذلك لم يعزف علماء المغرب والأندلس نهائيا عن النظر في مسائل الخلاف ، فنعرفوا عن آراء مختلف الفرق ، ونظروا ب خاصة في القضايا التي أخذت على البصريين ثابتوا منها وبطلوا ، وانتقدوا بدورهم بعض آراء البصريين ، وسائل من كتاب سيبويه نفسه ، وخرجوا هم أيضا بمدرسة نحوية جديدة ، هي المدرسة المغربية الأندرسية التي تحدث عنها ابن خلدون في غير ما موضع من المقدمة .

في حشد المساجد والمدارس النفعية وتشجيع المعلمين وال المتعلمين في كل جهات المغرب ، وفي تقديم العون المادي والمعنوي لملكية غربناطة ، مكان ذلك الاثر الحمود في احياء ثباء العلم بالمدوتين ، واعطى الدراسات اللغوية والنحوية فيها ، وبخاصة كتاب سيبويه نسما جيدا .

ولما حم القضاء ، وحلت الثباة الكبرى بالمسلمين في الأندلس في نهاية القرن التاسع أوت العدة الجنوبيه مختلف المؤسسات الحضارية مع آخر المهاجرين الاندلسيين ، وأصبحت مدينة ماس دار متمام لعدد عديد من الاسر النبيلة ، وفي متدمتها اسرة أبي عبد الله النصري آخر ملوك بنى الاحمر ، وعمر اندلسيون آخرون من نطاون والرباط والقصبة ، واستوطن غيرهم حتى قم الجبال وحدود الاوربة ، وبلغوا بساتن سوس الانصي .

وبذلك امتزجت الحضارة الاندلسية بالحضارة المغربية امتزجا نهائيا ، ولم تقطن نبالة تلك الشقاعة الاصيلة ، ومعها الدراسات النحوية وكتاب سيبويه ، لم تقطن في المغرب إلى أيام الناس هذه .

الدراسات النحوية في المدوتين :

بدأت الدراسات النحوية بالشرق ، كما هو معلوم ، في زمن مبكر أيام الخلفاء الراشدين ، وتوالت بعد ذلك إلى أن ظهر في البصرة الخليل ابن أحمد النراويدي في منتصف القرن المجري الثاني (فوضع الأسس ونبع الطريق ، تاركا أمر تدوين التوانين نحوية إلى تلبيذه أبي عمرو بن عثمان سيبويه واضح « الكتاب » المشهور . وتعد يكون هذا الكتاب من بين الأسباب التي أدت إلى احتدام الخيل بين المدينتين المتأsistين : البصرة والكونية ، ذلك الخصم الذي انجلى من قيام مدرستين نحويتين ، أحدهما ، وهي مدرسة البصرة ، تأسداها الامالة والمنطق ، إذ وضعت توانين عامة حسب مقياس معقولة وأهميتها الشواذ وما خلت الاستعمال المشهور منذ جمورة العرب ، تمحضت بذلك اللغة العربية في قوالب محكمة وصيغ مطبوعة يسهل - نسبيا - ادراكها والاحاطة بها . والثانية ، وهي مدرسة الكونية ، ساندها البلاط العباسى وشد أزرها لاغراض لا علاقة لها ب موضوع اللغة وقواعدها . هذه

الأندلسيين الذين شرحا الكتاب وعلقا عليه . فهو قد ألف كتاب تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب المطبوع مع كتاب سيبويه في طبعة بولاق شرح فيه شواهد الكتاب الشعرية التي تتفق عن الف بيت ونبتها إلى أصحابها . ولفت أيضا كتابا جمع فيه الكتب في كتاب سيبويه ، ورسالة مطولة في المسألة الزنبرورية الشهير ، أوردها المقرى بتأتمها في نفح الطلب ، الجزء الرابع من طبعة بيروت الأخيرة .

أشهر الدارسين لكتاب سيبويه :

تكلّث عدد الدارسين لكتاب سيبويه في المغرب والأندلس عبر العصور تكالبا يجمل من حيث حماولة تمدادهم بل الاحاطة بهم ، ولو اتسع مجال انتول . غير أنه لن يكون دون مائدة في ختام هذا المعرض الوجيز الاشارة إلى بعض الاعلام البارزين منهم تثليلا لما سبق وتوبيعا .

ذكر في البداية ثلاثة من الحامة المشاركة الذين دخلوا المغرب وألأندلس في التسعون الإسلامية الأولى وكان لهم فضل السبق في نشر النحو واللغة والأدب وكتب سيبويه في هذه الديار . وهي :

أبو البسر الشيباني ، إبراهيم بن أحمد البغدادي ، ثايميد هالي البصرة المرد والجاحظ ، ومن اصحاب الشاعر في ابن تمام والبحترى . حمله على المقرب مما غزيرا ، وانصرف جزء اهتمامه إلى كتاب سيبويه ، حتى أنه كتب منه نسخة في أخريات حياته بقلم واحد ما زال يبريه حتى قصر نادئه في قلم آخر وكتب به حتى نفث بقلم الكتاب . وكانت خاتمة مطبات ابن البسر مدينة القبوران حيث توفى عام 298 .

وأبو علي القالي ، اسماعيل بن التاس البغدادي ، من اصحاب القوادر والأعمال ، والمصور والمدوود ، والبلارع ، وغيرهما من كتب اللغة والنحو والأدب . وقد على عبد الرحمن الناصر الاموي عام 330 وعشرين بخطبته يدرس ، في جملة ما يدرس ويسل «كتاب سيبويه» ، وكان قد أخذه في بغداد من ابن درستويه عبد الله بن جمنر المارسي . ومسرفي القالى بتدقيق النظر في الكتاب والانتصار للبصرريين إلى أن توفى عام 356 .

وصادف البغدادي ، أبو الملاه بن الحسين -

ومهما يتعلق بالقبال على دراسة اللغة العربية وتواترها في الغرب الإسلامي ، نلاحظ وجود نفس الظاهرة الشرقية المتجلية في وفرة العناصر الاعجمية الأصل من بين الدارسين . فكما كان سيبويه ودرستويه الفارسيتان مثلا من أعلام النحو العربي في الشرق ، كان الجزوئي وأبن آجر يوم من برايرة السوس الاتصال من أئمة هذا الدين في الغرب . وظلت كتبهم جيما تقرأ وتشرح على تعاقب الحتب والاجيال . غير أن من المفارقات التي لا يبني على إغفالها في هذا الباب ، أنه إذا كانت العناصر الغير العربية في الشرق ، وبخاصة الفارسية قد اخذت تعود إلى لفتها الأصلية منذ زمن غير بعيد عن عمر سيبويه ، فإن السوسين في المغرب ظلوا يتعلمون لغة القرآن ويعلمونها ويؤلفون فيها مآت الكتاب إلى اليوم . وقد نشر المرحوم المختار السوسي منذ بضع سنوات ترجم علماء هذا الق testim المغاربة وأثارهم الضخمة في اللغة العربية وغيرها ، في كتابين هامين : سوس العالمة ، والمussou ، ويقع هذا الأخير في عشرين مجلدا .

مركز كتاب سيبويه :

لعل أمدق تعبير عن المكانة المكينة لكتاب سيبويه في نفوس المغاربة والأندلسيين أنه ظل معتقدا في الأساس في الدراسات العلميالى يست移到ه بغيره طوال القرون . ولا ينفع من وجود كتب دراسية نحوية في هذه المنطقة أنها حل محل الكتاب ، وإنما هي متقدمة وأراجيز وضعت للمبتدئين والتلاميذ عن ادراك . سائل الكتاب وذلك كمقدمتي الجزوئي وأبن آجر يوم ، والفيقي ابن معطن وأبن مالك وما إليها من شروح وحواش . ومع ذلك بقى الكتاب مبال براعة المبرزيين من شیوخ النحو . ولملتقى النباء (الشادين) من الطلاب . هذا بالأسنان إلى وفرة عدد حفاظ الكتاب والمشتغلين بالكتاب عليه شرحا وتعليقا واستدراكا . ومن نماذج حفاظ الكتاب المغاربة أبد هنآن المسكوري ، موسى بن يعوبين صاحب كتاب سيبويه في القرويين . فقد ذكروا في ترجمته أنه لفتح بن يحيى يوما كتاب سيبويه بالقرويين في ثلاثة مواضع ، تقرأ في كل موضع مقدار ثلاثة أحزاب مرضا عن ظاهر قلب . وكان ذلك بتذليل من مناسبه الذين رأموا أعياره على رؤوس الملا لما كان في طبعه من حدة وفي لسانه من سلامة . كما يعتبر الأعلم الشنتمرى يوسف بن سليمان الأشبيلي من أبرز نماذج

الغرب ، يدرس كتاب سيبويه في كل من نفس ومبنة وسلا ، مكونا حلقة أولى في مسلسلة نحوية ستطول أجيالا عديدة . وكانت ولته بمدينة سلا عام 559 .

— محمد بن أحمد ابن طاهر الاتصاري
الشيبيلي ترا بالاتسلس والمغرب ، واستوطن
مدينة ناس قاتلها على تدريس كتاب سيبويه ، وله
تعليق على الكتاب . واقسم أن يترئسه في البصرة
حيث وضعه سيبويه ، وبر ابن طاهر بقشه نوح
ودرس الكتاب بمصر والبصرة مدة ، وسرض في
طريق رجومه ، ثبات في بجاية بالمغرب الاوسط
عام 580 .

ومن أبرز تلاميذ الإمامين الزنادق وابن مأمور :

أبو الحسن بن خروف ، علي بن محمد
الحضرمي ، وهو أندلس الاصل تراكتاب مسيبويه
بنناس وابن سبيلية وبراكنش وغيرها ، ووضع عليه
شرحه عجبيا سماء تنقیح الالتب في شرح غواص
الكتاب ، وله رسائل متعددة في مناظرة كبار نحاة
مسر :

و عمر بن عبد الله السلم الاغماني (أغاث).
قردية من مدينة مراكش) لم يصرّه منصب القضاء
الذى أسدّ ابه فى تمسان وفاس وائبيلاية من
تدريس كتاب سيبويه فى هذه المدن كلها ، الى ان
أمركته الولادة نجاة بالشبلية وهو بها قلسن
ملام 603 .

— وأبو اثيلان بن المجموم ، عبد الرحمن
بن عيسى الأزدي . وأسرة ابن المجموم من أئل
أسر فاس ، تسلّل فيها العلم والجاء والثروة
نحو عشرة قرون . وكانت لهم مكتبة من اعظم
المكتبات الخالمة في المغرب الإسلامي . درس أبو
الثاسم على كيل نحاة مصره في المغرب والأندلس
وناظر شيخه ابن طاهر في نحو ثلاثين كتاباً من
سيبوبيه . واترا الكتاب مدة غير قصيرة في جامع
التروين الى أن توفي بناس عام 604 .

— والامام الشلوبين ، عمر بن محمد ، شيخ
نهاية اشبيلية نيسيل لن ينتزمهما المسيحيون من بعد
المسلمين . كلن يدرس بها كتب مسيحية ، وكتب
يهودية طبعت في قرطبة في ذلك العصر .

من أبرز المخرجين على يد الإمام الشويني :

دخل الاندلس أيام المنصور بن أبي عامر ، فاعتزل
بمقدمه وأراد أن يعني به على آثار ابن علي التالي
لادامد من قبل على بنى أمية . لكن ثلاثة خبرة مساعد
بكتاب سيبويه عرضته إلى السخرية والاهتمام ،
ولم يشفع له لدى الاندلسيين ما أملأه عليهم من
كتاب الفصوص . نتند ذكرها أن مساعدًا دخل يوماً
على المنصور في مجلس فتم نحاة الاندلس وأبايهما
نساله عن ابن سعيد السيرامي ، فزعم مساعد
أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه ، فبادره العاصمي
بسؤال عن مسألة من الكتاب فلم يحضره جوابها ،
واعتذر بان التحو ليس جمل بضاعته ، فكان ذلك
بداية الش辱 الذي ظل يلاحق مساعدًا في جهات
الأندلس إلى أن أجلاه منها أيام الفتنة إلى جزيرة
مثلية حيث مات مغرياً حوالى عام 410 .

اما النحاة الاندلسيون والمغاربة الذين علقوا
بكتاب مسيويه وبرعوا في تدريسه والتعليق عليه ،
فياتى في طليعتهم ابنا العم الاشبيليان ازيدبيان
ابو محمد وايو بكر .

قرا أبو محمد عبد الله بن محمود الزبيدي
النحو بمستط راسه في الاندلس ودرس كتاب
سيبوهه ووضع عليه شرحا من احسن ما شرح به
الكتاب . ثم تاقت نفسه الى لقاء كبار الحلة
بالمشرق ، فرحل الى بغداد ولازم ابا سعيد
السیراني ثم ابا على الثارس . ولما انتقل هذا
الأخير الى نارس متار مسمى ابو محمد الزبيدي
ليها ندعاة الفرس ابا عبد الله الاندلسي .
وتنسابق ابو على الثارس من هذا اللاح في
الطلب والرغبة في الاستفادة ، نكان يقول للزبيدي
عن رؤوس الملا : (ان والله على وجه الارض
أحلى منك) وادركت الوفاة ابا محمد الزبيدي
ببغداد عام 372 .

اما ابو بكر الزبيدي فلم ينادر بلاد الاتدلس ،
وظل يدرس كتاب مسيويه في اشبيلية الى ان دعاه
الحكم المستنصر الى قرطبة ليؤذب فيها ولی عهده
هشام ، وكانت له في عامته الاموية مجالس
نحوية عالية على فرار مجالس ابن على التالي
السابقة . والد ابو بكر الزبيدي في جملة ما انت
استدراكا على كتاب مسيويه ، ومت وهو تلاش
باشبيلية علم 379 .

ونجد في المدحية الأخرى ، أبا محمد الزقاق ،
تماس بن محمد ابن الحاج ، شيخ النساء في

أبو زيد المكودي ، عبد الرحمن بن صالح ،
أمام التحاة في مصره ، مؤلف الشرح الشهير
على الفية ابن مالك . كان صاحب كرس كتاب
سيويه في القرويين إلى أن توفي بناس عام 807 .

وأبو عبد الله البغيلبي ، محمد بن إبراهيم ،
من قرية آيت الطالب في السوس الاقصى بجنوب
المغرب ، كان يستظهر كتاب سيويه ويدرسه لجاءه
طلبة الباية عقوداً عديدة من الستين . وكانت
وفاته عام 976 .

وأبو العباس الدلائلي ، أحمد الحارش بن
محمد بن أبي بكر . تخصص من بين قومه الملائمة في
تدریس كتاب سيويه بزاويةتهم الداية في جبال
الأطلس المتوسط بال المغرب ، إلى أن توفي عام
1051 .

وأبو عبد الله الدرعسي ، محمد بن ناصر ،
ماش في قرية تايكروت بصحراء المغرب يدرس
كتاب سيويه وتسهل ابن مالك . إلى أن توفي ربه
علم 1085 .

وبعد فإن كتاب سيويه ظل محظوظاً عنابة النهاة
المغاربة والأندلسيين منذ حمله إليهم تلاميذ سيويه
مدرسون وشرحوه واستدركوا عليه وانتقدوا بعض
مسائله ، ودانعوا من ينتقصه بغير حق . وما زالت
كلية اللغة العربية بمراكنش التابعة لجامعة
القرويين حتى اليوم تضع كتاب سيويه في طبعة
المواد التي يدرسها طلبة الرؤسات العليا بها .

الرباط - محمد هبى

أبو محمد الانصارى ، عبد الله بن علي . وانتقل
بعد سقوط أشبيلية في يد النصارى إلى مدينة
سبتة بالعروبة المغربية ، ناستوطنها ودرس بها
كتاب سيويه إلى أن توفي عام 647 .

عاصر أبا محمد الانصارى في سبتة نحو آخر
شهير هو :

أبو الحسن الشارى ، علي بن محمد الفائق ،
كان الكتاب ممن شهد في مرحلة التعلم والتليم ،
وتوفي بعد الانصارى بعامين .

ومن أبرز الشخصيات التحوية في القرون
المحريتين السابعة والثانية :

الإمام الصنف ، محمد بن يحيى العبدري .
أشهر المخرجين علي ابن خروف والقائم مقامه في
تدریس كتاب سيويه في القرويين بناس ، توفي
رحمه الله شهيداً في أحدى المعارك ضد المسيحيين
بجبل النتح المعروف أيام بجبل طارق عام 651 .

وأبو حيان الجياني ، أمير المؤمنين في النحو .
كان ملتمساً لا يتردىء غير كتاب سيويه ، أو تسهل
ابن مالك للذين لم يتأهلاً لها بعد لخوض غمار
الكتاب . وكان أبو حيان سلرياً معملاً بآراء ابن
تبيهة ، مشد الرحلة إليه من الأندلس ، وأقام معه
مدة في دمشق ، إلى أن خطأ ابن تبيهة سيويه وكتبه
مُكلناً ذلك سبب اعراض ابن حبان عنه وذهله
مخافضاً إلى التأهله . حيث أدركته الولادة
عام 745 .

ومن أشهر السيبويين المغاربة في القرون
الأخيرة :